الدرس الأربعون: التوبــة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة توبة مالك بن دينار حيث قال عندما سئل عن سبب توبته: كنت شرطيا وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ووقعت مني أحسن موقع فولدت لي بنتا فشغفت بها فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا وألفتني وألفتها قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة الجمعة بت ثملا من الخمر، ولم أصل فيها عشاء الآخرة، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ونفخ في الصور، وبعثرت القبور وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حسا من ورائي فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعا نحوي، فمررت بين يديه هاربا فزعا مرعوبا فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة، فسلمت عليه فرد السلام فقلت: أيها الشيخ أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه ولكن مر وأسرع، فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هاربا على وجهي فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران فنظرت إلى هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح ارجع فلست من أهلها فاطمأننت إلى قوله: ورجعت ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة وفيه كوى مخرمة وستور معلقة على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر مفصلة

باليواقيت مكوكبة بالدر على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربا والتنين من ورائي حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع - أي الأبواب - وأشرفوا فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت فأشرف عليَّ من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنين مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فوجا بعد فوج وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كَرمية السهم، حتى مثلت بين يدي فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى، فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربا ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت يا أبت:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله} [الحديد:16]، فبكيت، وقلت: يا بنية وأنتم تعرفون القرآن فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم قلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية، وما تصنعون في هذا الجبل قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية، وتبت إلى الله ♣ وهذا كان سبب توبتي (49).

و لقد أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى يوم القيامة للحث على التوبة منها قول الله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم:8].

وقول الله تعالى:{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:53].

إخوتي في الله، قد يعرف البعض حرمة ما يقع فيه، ولكنه يؤجل

التوبة أو يسوف فيها، فمنهم من يؤخرها إلى ما بعد الزواج، أو التخرج، ومنهم من يؤجلها ريثما تتقدم به السن، إلى غير ذلك من دواعي التأجيل، وهذا خطأ عظيم، فالتوبة واجبة على الفور، فأوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على الفور ما لم يقم دليل على جواز تأخيرها بل تأخيرها ذنب يجب أن يستغفر منه.

وبعض الشباب يرغب في التوبة، ولكنه لا يبادر إليها، مخافة أن يعاود الذنب مرة أخرى، وهذا خطأ، فعلى العبد أن يتوب إلى الله، فلربما أدركه الأجل وهو لم ينقض توبته. كما عليه أن يحسن ظنه بربه جل وعلا وأن يستحضر أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه، وأنه تعالى عند ظن عبده به، فعن أبي هريرة ☺ قال قال النبي صلى الله عليه وسلم :"**قال الله ♣ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي** -[1]، ثم إنَّ على التائب إذا عاد إلى الذنب أن يجدّد التوبة مرة أخرى وهكذا، والذي يعين على عدم العودة للذنب تغير الصحبة والبيئة.

وبعض الناس يغفل عن التوبة مما لا يعلمه من ذنوبه، وهذه من الأخطاء التي تقع في باب التوبة، والتي قل من يتفطن لها، فهناك ذنوب خفية، وهناك ذنوب يجهل العبد أنها ذنوب، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم من ذنوبه، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم، فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد.

وبعض الناس تحدثه نفسه بالتوبة، ولزوم الاستقامة، ولكنه يخشى لمز وعيب بعض الناس له، وهذا خطأ فادح، إذ كيف يُقَدم خوف الناس على خوف رب الناس؟، أضف إلى ذلك أن الإنسان سيذهب إلى قبره وحيداً، وسيحشر إلى ربه فرداً، فماذا سينفعه فلان أو فلان ممن يثبطونه؟.

معاشر الإخوة، قد يترك بعض الناس التوبة؛ مخافة سقوط المنزلة

(1) (صحيح) أخرجه (م) 2675.

وذهاب الجاه والشهرة، ولا ريب أن ذلك نقص في ديانة الإنسان، وشجاعته، ومروءته، وعقله، ثم إن الشهرة والجاه عرض زائل، وينتهي بنهاية الإنسان؛ ولن ينفعه إذا هو قدم على ربه إلا ما قدم من صالح عمله، ثم إنه إذا ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، والعوض من الله أنواع مختلفة، وأجل ما يُعَوَّض به أن يأنس بالله، وأن يرزق محبته ♣ وطمأنينة القلب بذكره، ومما يعوضه الله أن يرزقه أصحاباً أبراراً يجد عندهم من المتعة والفائدة ما لا يجده عند أصحابه السابقين، وبعض الناس من يتمادى في الذنوب ويسرف في المعاصي، فإذا زُجِرَ وَلِيمَ على ذلك قال: إن الله غفور رحيم، كما قال أحدهم، ولا ريب أن هذا الصنيع سفه، وجهل، وغرور، فرحمة الله قريب من المحسنين لا من المسيئين، ثم إن الله ♣ مع عفوه شديد العقاب ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

قال تعالى:{**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ (50)**} [الحجر49 - 50]، وحسن الظن ينفع من تاب، وندم وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حَسَّن الظن بعدها؛ فهذا هو حسن الظن، والأول غرور، والله المستعان.

فما هذا الذي هم فيه من النعيم إلا استدراج، وإهمال، وإملاء من الله ♣ حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** - قَالَ: **ثُمَّ قَرَأَ:"{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}** [هود:102] (1)، **إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلاَ:{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ}** [الأنعام:44] - (2) (60).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(1) (صحيح) أخرجه (خ) 4490، و(م) 2583.
(2) (صحيح) أخرجه (حم) وصححه الألباني في س.ص 413.